

خَلَقْنَا عَلَى صُورَتِهِ

كثيرون

هم الناس الذين يؤمنون بالله الواحد. لكن كثيرين منهم أيضًا يرون من المستحيل أن يصير الله إنسانًا بشخص يسوع المسيح. فمجرد القول إن الله يستطيع أن ينزل إلى الأرض ويقاسي كل ما نقاسيه من عذاب، هو في نظرهم فكرة لا يمكن فهمها. لكننا نلاحظ أن الذين يعارضون فكرة تأنس الله، غالبًا ما يؤمنون بأشياء يبدو فهمها أصعب. فهم مثلاً يقبلون الآية التي تقول "إن الله خلق الانسان على صورته ومثاله...." (تكوين 1: 27) فكيف يمكن كائناتٍ بشريةً مثلنا أن تكون على صورة الله؟ إننا نعرف ذواتنا وندرك ضعفنا. ولا ريب أن كاتب سفر التكوين كان هو أيضًا يعرف ما الطبيعة البشرية. فكيف له أن يدعي مثل ذلك الادعاء؟ كيف يمكن لروح الله الذي أوحى بالكتاب المقدس أن يخاطبنا بتلك الكلمات؟ ومع ذلك فنحن على يقين أن كل مخلوق يعكس شيئًا من الله الذي خلقه. وأن حضور الله هو الذي يجعل الأشياء كلها متماسكة في الوجود، فهي بمثابة مرآة تعكس لنا صورة الخالق. فقوى الطبيعة المتجلية في المجرات والكواكب السيارة والجبال والمحيطات - كل ذلك يدل، في رأي كثير من الناس، على قدرة الله وعظمته، "فالكون مُفعمٌ بجلال الله" على حدّ تعبير الشاعر جيرارد مانلي هوبكنز. كما يرى غيرهم أن حكمة الله واضحة في تركيب أدقّ الأجسام الحية ونظام البيئة. وجميع العلماء، من عهد الإغريق إلى القرن الحادي والعشرين، راعتهم "التسبة الذهبية" (1.618 أو φ)، التي تعكس نظامًا خفيًا كامنًا في شتى الأشياء كالذرات، والموجات الدماغية والفنون التصويرية والموسيقى.

وقد رأى الناس في شتى العصور أنّ هذا النظام يُثبت وجود الله الذي خلق كلّ ما في الكون بدقة لا تُجارى. وإذا نظرنا إلى الانسان لوجدنا أنّ الله ينعكس فيه على نحوٍ خاصٍ يميّزه عن سائر المخلوقات. صحيح أنّ الله يتجلّى بحكمته وقدرته في جميع الكائنات، لكنّ الانسان وحده ينفرد عنها جميعًا بكونه مرآة حيّة ينعكس فيها الله في صميم كيانه. فالعهد الجديد يعلمنا أنّ الله محبّة. والحال أنّ الانسان هو الكائن الوحيد القادر على أن يحبّ فتظهر فيه محبة الله. ما هو الانسان؟ هو الكائن القادر أن يحبّ لأنّه على صورة الله الذي هو محبة.

صورة ومثال

مسيحيّون الذين يؤمنون أنّ الله ثالث، يرون أنّ العلاقة القائمة بين الأب والابن

والروح القدس هي في صميم الله. فالله هو إذاً تبادل حبّ وهذا الحبّ المتبادل ليس منغلّقًا على ذاته، بل يشمل الخلق كلّه. وعليه يمكن القول إنّ "التواصل" هو صميم كياننا. فقد جُعِلنا لتواصل بعضنا مع بعض، وفي الدّرجة الأولى مع الله خالقنا. ليس الانسان إذاً خليفة الله فحسب، بل هو خُلق في الله ولأجل الله. ويمكن القول عمومًا إنّ الله خلقنا لنعبد عن حبّ.

قال الله: "لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا" (1: 26) تلك كانت المقدّمة لقصة خلقنا الواردة في سفر التكوين. ويرى كثير من آباء الكنيسة، ومنهم إيريناوس، أنّ هنالك فرقًا بين الصّورة والمثال. فالصّورة تدلّ على ما نحن عليه، أمّا المثال فيشير إلى ما يمكن أن نصير.

إنّ خَلَقْنَا على صورة الله يحوّلنا القدرة الفطريّة على الحبّ، وعلى معرفة الخير واعتناقه. وبما أنّ الله يهب حبّه للخلق مجّانًا، كذلك منَح الانسان المخلوق على صورته الحرّيّة ليهب الحبّ أو يمتنع. أمّا خَلَقْنَا على مثال الله فيعني شيئًا آخر. إنه يعني أنّنا أُعطينا القدرة التامة على أن نتواصل بعضنا مع بعض ومع الله، وأن نسعى إلى الكمال لتكون تمامًا على مثال خالقنا. ويقول القديس إيريناوس في ذلك: عندما خلق الله الجنس البشريّ كان الانسان في عهد الطّفولة. وكما أن الرضيع يولد لينمو ويصبح بالغًا، كذلك الجنس البشريّ كان رضيعًا بالمعنى المجازي. كان واضحًا أنه قادر أن ينمو. لكن لم يكن من المضمون أنه سيفعل.

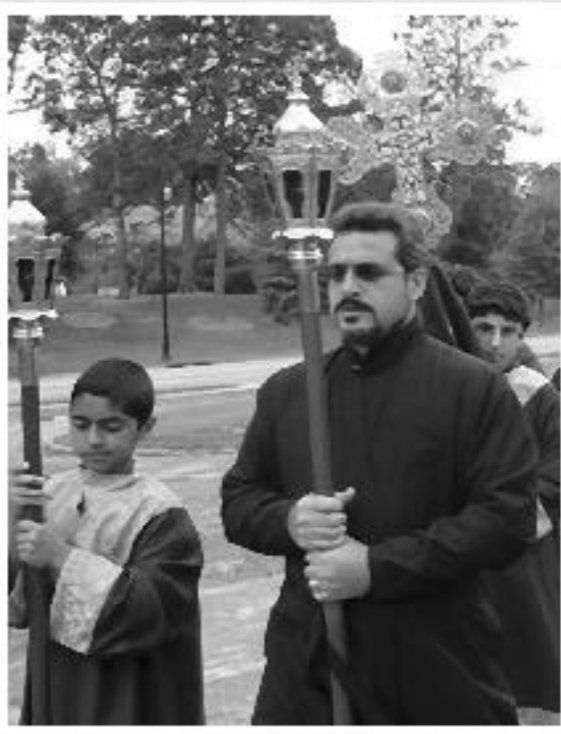
كسر المثال

سفر التكوين يروي لنا أن علاقة الانسان

بخالقه انقطعت. فقد طمح آدم وحوّاء إلى أن

يُصبحا "مثل الله"، مع أنه كان قد حدّرها أخمًا سيموتان إن عصيا أوامره. لكنهما انفردا بالرأي ولم يثقا بالله، فتغيّرت علاقتهما بالله إلى الأبد. بيد أنّ صورة الله بقيت مطبوعة في الانسان، أمّا مثاله فتشوّه إلى حدّ أنّ أصبح محالا على البشر أن يبلغوا الكمال الذي شاءه الله. فكان الشّخصُ الوحيد القادر على تحقيق الطبيعة البشرية بكما لها هو ابنه الوحيد، صورته الأزليّة: "الذي هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليفة. فانه فيه خُلق الكلّ، ما في السموات وما على الارض ما يرى وما لا يرى... الكلّ به وله قد خُلق... لانه فيه سرُّ الله ان يجلّ كلُّ الملء." (كولوسي 1: 15-19) وهكذا يتّضح أنّ كلمة الله، صورة الأب، تأنس ليتّم كمال الطبيعة البشرية في ذاته، كما قال أحد المتصوّفين: "لما أراد الله أن ينظر إلى وجهه أرسل يسوع إلى العالم."

خُلِقْنَا عَلَى صُورَتِهِ



مكتب الخدمات التربوية
لأبرشية نيوتن الملكية
<http://mekite.org/>

حقوق الطبع والنشر للصور محفوظة
طبعت بالإذن من زوي حنا
الكنيسة الملكية للقديس يوحنا الذهبي الفم
أتلانتا، جورجيا

فهم قول السيد المسيح: "كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماوي هو كامل" (متى 5: 48) وذلك على ضوء أعمالنا، قائلين في أنفسنا: "إنّ أنجزتُ كذا وكذا فأنا أسير نحو الكمال في نظر الربّ."

ولعلّ أفضل دليل على أنّنا نتقدّم في مسيرتنا إلى التألّه، هو أنّ نحاول أن نتشبه بالمسيح الخادم، على نحو ما حتّنا عليه بولس الرسول: "ليكن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو أيضًا في المسيح يسوع، الذي إذ هو في صورة الله، لم يعتدّ مساواته لله اختلاسًا، لكنّه أخلّى ذاته آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه البشر. وإذ وُجد كبشر في الهيئة، وضع ذاته وصار طائعًا حتى الموت، موت الصليب." (فيلبي 2: 5-8) وكلّما تأصّلت فينا أخلاق يسوع، من تواضع وطاعة وخدمة، تمثّلت فينا أيضًا حياة الله، ونمت محبتنا للآخرين، بل للخلق كلّه، وتجلّت فينا أفكار يسوع، وأصبحنا ما نحن: أناس يجيئون بحياة الله الساكن فيهم ويشاركونه في طبيعته الإلهية.

ولمّا صار ابن الله واحدًا منّا أمكنه أن يُعيد إلينا المثال الإلهي الذي فقدناه، وأصبح في مقدورنا - نحن الذين خُلِقوا على صورة الله - أن نستأنف رحلتنا نحو تحقيق الألفة مع الله في المسيح "رجاء مجدنا" (كولوسي 1: 27). الربّ يسوع المسيح وحده يكشف حقًا مدى حبّ الله لنا. وجميع الذين لبسوا المسيح بالمعمودية وصانوا اتّحادهم معه سيتحوّلون إلى شركاء في الطبيعة الإلهية" (2 بطرس 1: 4) على مثاله. وهذا التحوّل الذي يسمّيه الآباء القديسون تألّه هو الغاية القصوى لحياتنا كمسيحيين، كما أنّه أيضًا السعي لبولوج تلك الغاية. الرحلة التي نباشرها ههنا لن تتمّ إلّا في الدهر الآتي.

ترميم المثال

إنّ

عمل التألّه يبدأ بالمعمودية. وإذا جعلنا من منهج التقوى الهدف الرئيسيّ في حياتنا، فإنّنا نكون قد أتحنا لنعمة المعمودية أن تواصل ذلك العمل فينا. لذا نبذل وسعنا لتتقيّد بالوصايا العشر وبأوامر الربّ الذي يحثّنا على الصلّاة والصّوم والصدقة والسّير سيرة حميدة متوافقة مع حياة الكنيسة. كما أنّ عمل التألّه ينشط فينا، إذا كنّا نعي حضور الله في قلبنا وفي سيرتنا كلّ لحظة. ونمّا يشجّع هذا الوعي، المواظبة على تلاوة صلاة يسوع: "أيها الرب يسوع المسيح ابن الله، ارحمني أنا الخاطيء". وبذلك نكتشف معنى قول القديس غريغوريوس السّينائيّ: "صِرْ ما أنت. إسع لتجد مَنْ هو فيك. أصغ إلى مَنْ لا يكفّ عن مخاطبتك. إمتلك مَنْ يمتلكك".

وحالما نباشر إيداع حياتنا كلّها للمسيح الإله، نستطيع أن